

# ازدواجية الخطاب عند الأساتذة والطلاب

الدكتور خريش عبد القادر أستاذ محاضر -

قسم علم الاجتماع والديموغرافيا، جامعة سعد دحلب البليدة

كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

## الملخص:

ما يلاحظ أنّ الطفل الجزائري الذي ينتمي إلى بيئة عربية خالصة، لا يأتي إلى المدرسة وهو يتكلم اللغة العربية التي تستعملها المدرسة، بل يتكلم العربية الدارجة التي تتحدث بها أسرته ومحيطه ممزوجة باللغة الفرنسية، على حين أن المدرسة تستعمل اللغة العربية الفصيحة في كتبها المدرسية وفي دروس معلمها كما هو المفروض؛ وتُسمى هذه الظاهرة في علم اللغة بالازدواجية اللغوية، التي تؤكد عقدة اللغة، وخاصة عند الطبقة المثقفة.

## Résumé:

Ce qui est remarquable c'est que l'enfant algérien qui appartient à un environnement globalement arabe ne s'intègre pas en parlant la langue arabe à l'école qui apprend l'arabe mais parle dialecte arabe parlé par sa famille et ses environs combiné avec la langue française tandis que l'école utilise la langue arabe couramment dans les manuels et les leçons des enseignants comme il est censé; Ce phénomène est appelé dans la science du langage double emploi de la langue qui met l'accent sur un langage complexe surtout dans la classe instruite.

## تمهيد:

تعتبر مشكلة الازدواجية في اللغة العربية من أهم المشكلات اللغوية التي تواجه الوطن العربي وبخاصة من النواحي الاجتماعية والنفسية والتربوية. ولطبيعة هذا الموضوع الحساسية من الناحيتين القومية والسياسية من جهة والدينية من جهة أخرى، فإنه لم يلقَ عناية موضوعية كافية، أو بحثاً مستفيضاً في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة، خاصة التطورية والمقارنة منها. ويبقى الكثير مما كتب ردود فعل آتية أملتها انتبئات ومصالح مختلفة أكثر مما أملاها البحث الموضوعي الجاد في العالم العربي وخاصة في الجزائر نظراً لأسباب تاريخية ووضعية ومستقبلية.

## أولاً: ماهية ومفهوم الازدواجية:

استجابة ضرورية لحاجة الاتصال بين الناس جميعاً، ولهذا السبب يتصل علم اللغة اتصالاً شديداً بالعلوم الاجتماعية، وأصبحت بعض بحوثه تدرس في علم الاجتماع، فنشأ لذلك فرع يسمى «علم الاجتماع اللغوي» يحاول الكشف عن العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبين أثر تلك الحياة الاجتماعية في الظواهر اللغوية المختلفة».

إن كلمة «ازدواجية» ترجمة للمصطلح الانجليزي «Diglossia». يُعتَقَد أن أول من تحدث عن هذه الظاهرة هو اللغوي الألماني كارل كرمباخر (Krubacher) في كتاب له صدر عام (1902) Das Problem der Modern Griechischen (schriftspraache)، تطرّق فيه إلى طبيعة هذه الظاهرة وأصولها وتطورها، وأشار بشكل خاص إلى اللغتين اليونانية والعربية، وخلص إلى نتائج تفسر كثيراً من التطورات المتأخرة لبعض الدعوات في العالم العربي، إذ اقترح على اليونانيين ترك «ازدواجيتهم الشرقية» واللاحاق بالعالم الغربي، بتبني العامية لغة قومية.

كذلك دعا العرب إلى ترك فصيح لسانهم وتبني إحدى اللهجات لغة قومية؛ لكن الرأي العام الشائع في أدب هذه الظاهرة اللغوية هو أن العالم الفرنسي وليم مارسيه (William Marçais) أول من نحت الاصطلاح بالفرنسية (La diglossie) وعرفه في مقالة تخص الازدواجية في العربية عام 1930 بقوله: «هي التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة للحديث».

اللغة العربية الفصحى: هي لغة القرآن الكريم والتراث العربي جملة، والتي تستخدم اليوم في المعاملات الرسمية، وفي تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكري.

اللهجة: Dialect أو العامية، وهي التي تستخدم في الشؤون العادية، والتي يجري بها الحديث اليومي. فهي «عبارة عن مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة، ويشارك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة». أو هي: «نمط من الاستخدام اللغوي داخل اللغة الواحدة، يتميز عن غيره من الأنماط داخل نفس اللغة بجملة من الخصائص اللغوية الخاصة، ويشارك معها في جملة من الخصائص العامة». مما يؤكد على أن العلاقة بين اللهجة واللغة هي علاقة عموم وخصوص، حيث تشمل اللغة الواحدة عدة لهجات متباينة في خصائصها اللغوية، مع اشتراكها في صفات لغوية أخرى. ويتخذ مصطلح العامية أسماء عدة عند بعض اللغويين المحدثين.

ويقصد بـ «ازدواجية اللغة» (le biliguisme) وجود لغتين مختلفتين، عند فرد ما، أو جماعة ما، في آن واحد، ومن دون الدخول في بحث المعايير التي بواسطتها نستطيع أن نؤكد أو ننفي وجود الازدواجية بين لغتين معينتين، فإن بعض الباحثين يرفضون استعمال مصطلح «الازدواجية» الذي يستخدمه الكثير من اللغويين للدلالة على شكلي اللغة العربية: الفصحى والعامية. ذلك أن العامية والفصحى فصيلتان من لغة واحدة، والفرق بينهما بالتالي فرق فرعي، لا جذري. وعليه، فالازدواجية الحق لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين، كما بين الفرنسية والعربية، أو الألمانية والتركية. أما أن يكون للعربي لغتان إحداهما عامية، والأخرى عربية فصيحة، فذلك أمر لا ينطبق مفهوم الازدواجية عليه، إنه بالأحرى ضرب من «الثنائية اللغوية» diglossie. فيرون أن أمر الفصحى والعامية نوع من الثنائية، وذلك لأنها فصيلتان من لغة واحدة، في حين أن الازدواجية لا تكون إلا بين لغتين مختلفتين كالعربية والفرنسية.

الثنائية اللغوية La diglossie: ونعني بالثنائية اللغوية في الوطن العربي أن يتكلم الناس في البلد لغتين الأولى العربية التي ستخدم في المجالات الرسمية كالحياة والتعليم والإعلام والبرلمان وكتابة القوانين. والثانية لغة محلية (غير عربية) تستخدمها مجموعة من المواطنين للتواصل فيما بينها، بينما تستخدم اللغة السائدة للتواصل مع الآخرين.

الازدواج اللغوي Le bilinguisme: لقد اختلف اللسانيون حول مفهوم مصطلح (الازدواج اللغوي) فبعضهم يطلقه على وجود مستويين لغويين في بيئة لغوية واحدة، أي لغة للحديث وأخرى للعلم والأدب والثقافة والفكر، وبعضهم يطلقه على وجود لغتين مختلفتين (قومية وأجنبية) عند فرد أو جماعة ما في آن واحد، أي إنه ومصطلح (الثنائية) يتبادلان الموقع عند الباحثين، وأفضل إطلاق مصطلح الازدواج اللغوي على المفهوم الأول لأنه أشيع بين الباحثين ولأن المعجم يدعم هذا.

## ثانياً: نبذة موجزة عن الازدواجية اللغوية:

بعد ثلاثة عقود من الزمان، وعلى جهة التحديد عام 1959، وفي مقالة تُعدّ من أشهر ما كتب عن الموضوع قدّم اللغوي الأمريكي شارلز فيرجسون هذا الاصطلاح إلى الانجليزية، إذ بحث أربع حالات لغوية تتميز بهذه الظاهرة، وهي: العربية واليونانية والألمانية السويسرية، واللغة المهجنة في هايتي.

كما قدّم فيرجسون تعريفه واسع الانتشار لهذه الظاهرة: حالة لغوية ثابتة نسبياً، يوجد فيها فضلاً عن اللهجات الأساسية (التي ربما تضم نمطاً أو أنماطاً مختلفة باختلاف الأقاليم) نمط آخر في اللغة مختلف، عالي التصنيف (وفي غالب الأحيان أكثر تعقيداً من الناحية النحوية) فوقى المكانة، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، أو لجماعة سالفة.

ويتعلم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية، ويستعمل لمعظم الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، لكنه لا يستعمل من قبل أي قطاع من قطاعات الجماعة المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية.

يقول دل هيمز (Dell Hymes 1964) اللغوي الاجتماعي الأميركي تعليقاً على مقالة فيرجسون إن الازدواجية مثال ممتاز لتعايش نظامين غير متبادلي الفهم (ويقصد هنا الفصحى والعامية، وصعوبة فهم الفصحى على العوام) وترابط كل من هذه الأنظمة بمفاهيم وقيم مختلفة، وكمثال لضرورة الرجوع إلى الجماعة المحلية للتحكيم لتجنب أي تحريف أو تشويه قد ينشأ بحالة الاتصال.

وكذلك تعرّض لهذه الظاهرة بالدرس كل من جمبيرز (1962) (Gmpers 1962) وفشمان (Fishman 1972)؛ فقد أضاف جمبيرز في أعماله الكثيرة ذات الصلة بهذه الظاهرة أن الازدواجية ليست حصراً في المجتمعات المتعددة اللغات، التي تعترف رسمياً بعدة لغات، ولا في المجتمعات التي تتكلم أنماطاً عامية وفصحى، ولكن في المجتمعات التي تستخدم لهجات منفصلة، أو أساليب مختلفة، أو أي أنماط أخرى تحدم وظائف مختلفة. كذلك بحث النماذج الاجتماعية التي تحدد استعمال نمط دون آخر.

أما فشمان فقد لخص ما قدّمه لدراسة هذه الظاهرة بأنه تناول استمرارية الازدواجية وتعطيلها على المستوى القومي والاجتماعي. وحاول ربط الازدواجية ببعض الاعتبارات النفسية وما يختص منها بثنائية اللغة (Bilingualism) بشكل رئيسي، ودرس نماذج من الجماعات التي تتميز بالازدواجية والثنائية، وبالازدواجية دون الثنائية، وبالثنائية دون الازدواجية، والجماعات التي لا تعاني من الازدواجية أو الثنائية.

وقبل سنوات قليلة، تناول ألن كي (Kaye 1972) تعريف الازدواجية بشكل مختلف إذ انتقد تعريف فيرجسون لها، ووصفه بأنه «انطباعي». ونظر الى وضع الازدواجية كوضع لا يميل إلى الاستقرار والثبات كما فهمه فيرجسون؛ كذلك فهم الفرق بين النمطين الأساسيين للعربية الفصحى والعامية بين نمط معرف «defined» وهو العامة، وغامض التعريف وهو الفصحى.

فالعامة في رأيه نمط معرف، لأن الطفل يتعلمها لغة أولى، أما الفصحى فإنها نظام غامض التعريف لأنها لا تكتسب لغة أولى، بل يتعلمها الطفل فيما بعد في المدرسة. وفي اعتقاده أنه لوجود تفاعل مستمر بين النظامين، لا يمكن أن نستنتج بأن الوضع الإزدواجي يميل إلى الثبات، بل على العكس هو متغير.

وفي مقالة نشرت عام 1993 حاول شيفمان (Schiffman) أن يعيد نقاش قضية ثبات الوضع الازدواجي أو عدمه مبيناً أن هذا الوضع غير ثابت إطلاقاً، وذلك لسبب رئيس أسماه الخلل في ميزان القوى بين الأنماط المختلفة التي تشكل الوضع الازدواجي. إذ يؤدي هذا الخلل في ميزان القوى إلى التنقل من نمط إلى آخر وفي النهاية إلى إحلال نمط محل نمط آخر.

ومنذ دعوة فيرجسون للغويين لدراسة هذه الظاهرة عام 1959 أضحت الدراسات لهذه الظاهرة وبخاصة في الغرب تتوالى ويشكل أصبح من الصعب حصرها لكثرتها. ففي دراسة بيبولوجرافية حديثة النشر نسبياً قام بها هدسون (Hudson 1992) تمكن من حصر ما مجموعه «1092» مادة علمية منشورة عن الازدواجية جلتها في الانجليزية. ويشير هدسون في المقالة نفسها إلى أن أكثر من نصف هذه المواد العلمية تم نشره في العشر سنوات من 1983-1992.

### ثالثاً: العوامل المكرسة لازدواجية اللغة في الجزائر:

ومن بين أبرز العوامل التي عملت على تكريس الازدواجية اللغوية في الجزائر المستقلة، نذكر ما يلي:

أولاً : العامل التاريخي : ويتجلى لنا دور العامل التاريخي في تكريس الازدواجية اللغوية في جزائر ما بعد الاستقلال فيما يلي :

الاحتلال بأشكاله وأساليبه المختلفة: ويتمثل لنا ذلك في تلك الطرائق والأساليب الجهنمية التي يتعامل بها الاحتلال، أينما وجد، وحيشاً حل، إذ أول ما يقوم به المحتل هو ضرب لغة الدولة المحتلة، لأنه يعرف من أين تأكل الكنف، يعرف جيداً أن اللغة

عامل توحيد وتفريق في آن واحد، لهذا نراه يركز بإتقان على فرض لغته قولاً وفعلاً. فأما القول فيتجلى في تلك الدعوات التي تتعالى هنا وهناك، على السنة المستشرقين وأتباعهم الحاقدين على اللغة العربية، كما هو الحال في مصر، وسورية ولبنان... والتي تحذر من مخاطر التعامل باللغة العربية باعتبارها سبب تخلف الشعوب التي تتكلم بها. وأما الفعل، فيتجسد في الميدان عن طريق فرض لغة المستعمر بالقوة على الأهالي والسكان الأصليين، وتضييق الخناق على لغتهم الأصلية، كما حدث في الجزائر وغيرها من الدول المغاربية المجاورة، فالاستعمار يدرك إدراكاً جيداً أنه: «ما دلت لغة شعب إلا ذل، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هذا يفرض الأجنبيّ المستعمر لغته فرضاً على الأمة المستعمرة، ويركبهم بها، ويُسعرهم عظمتها فيها، ويستلحقهم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثة في عمل واحد: أمّا الأول فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبداً، وأمّا الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل محوًّا

ونسياناً، وأمّا الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعدها لأمره تبع».

وكانت فرنسا تعتقد واهمة إلحاق الجزائر بفرنسا الكبرى، حيث كانت تصف عاصمتها بباريس الصغرى ولم يخطر ببال الفرنسيين أن يأتي يوم يضطرون فيه لمغادرة الجزائر «الفرنسية»، لذا فقد حاربت اللغة العربية وحاولت فرنسة الأرض والشعب، كما أجبرت الجزائريين على تعلم الفرنسية، ومنعت تدريس العربية حتى في المساجد، بل وحولت الصراع بين العربية والفرنسية إلى تناحر بين العربية والأمازيغية وبين الفصحى والعامية؛ لأن فرنسا كانت تعتبر بلدنا الجزائر في تلك الحقبة الاستعمارية، جزءاً لا يتجزأ من ترابها، وهذا يعني في عبارة مختصرة أن التعليم في الجزائر كان لا يخالف، أو لا يكاد، التعليم في فرنسا، نفس البرنامج، ونفس الإطار، ونفس الهدف. وإذا كان هناك فرق فإنما في كون الطفل الفرنسي كان حراً في تكوينه واختياراته وعواطفه في حين أن الطفل الجزائري كان لا يملك هذه الحرية لا قليلاً ولا كثيراً، فقد كان مفروضاً عليه أن يتعلم الفرنسية كلغة وطنية، ومنموها عليه أن يحاول تعلم العربية لسبب واحد وهو أنها لغة أجنبية في الجزائر، بل هي أقل من اللغات الأجنبية الأخرى كالإنجليزية والإسبانية والإيطالية والألمانية.

فإذا كان الاحتلال في الماضي القريب يسمح للمستعمر برسم سياستنا التعليمية. فإن اليوم ما يسمى بالمعونات الاقتصادية واتفاقيات الشراكة يعطي للمستعمر الجديد الفرصة نفسها. والكلام عن معونات غير مشروطة كلام تنقصه الأمانة والوطنية معاً، فلقد «كانت اللغة وما زالت هدفاً من أهداف سياسة الاستعمار الإدماجي».

ضعف مناهج التدريس وقصورها في منهجية تعليم اللغة العربية، والنظرة التربوية القصرة عن إدراك أهمية تعليمية الأطفال في مراحل دراساتهم الأولى، ودورها الفعال في بناء الكيان التربوي السليم للطفولة البريئة. إذ كثيرا ما نجد القائمين على هذا القطاع الحساس -عكس الدول المتقدمة- يعينون معلمين من ذوي المستويات الدنيا لتعليم هذه الشريحة الهامة، جاهلين أو متجاهلين أن فاقد الشيء لا يعطيه، إذ إننا ما زلنا نظن أن تعليم الطفل أهون أنواع التعليم، وأدى هذا إلى أننا أصبحنا نقيس مقدار المعلم بعمر الطفل الذي يتولى تربيته وتعليمه، صعودا وهبوطا، فمعلم الإعدادي أكثر احتراما من معلم الابتدائي، وأقل مركزا من مدرس المدارس الثانوية ... وهي فكرة ساذجة مدمرة لنفسية هذا المعلم، الذي وضعنا بين يديه هذه العجينة اللينة -طفل اليوم ورجل المستقبل- ليجعل منه مواطنا صالحا أو شيطانا ماردا. فيجب على الدولة أن تهتم اهتماما كبيرا وجديا بإعداد مدرس اللغة العربية، ومعالجة التدريس المتدني بكل قوة وصراحة فمن المؤلم أن نجد معلم العربية سواء في المدرسة الابتدائية، أو الثانوية أو حتى الجامعة يتحدث بالعامية وهو يقوم بواجبه، ومن البديهي أنه لا يمكن والحال هذه أن يحاسب طلبته على أخطائهم اللغوية والنحوية والإملائية.

الظواهر الاجتماعية لها قوة قاهرة أمرة، تفرض بها على أفراد المجتمع، ألوانا من السلوك والتفكير والعواطف، وتحتم عليهم أن يصبوا سلوكهم وتفكيرهم وعواطفهم، في قوالب محددة مرسومة ويدل على وجود القهر في الظواهر الاجتماعية - في نظرهم - أن الفرد إذا حاول الخروج على إحدى هذه الظواهر الاجتماعية، فإنه سرعان ما يشعر برد فعل مضاد من المجتمع الذي يعيش فيه، ذلك لأن المجتمع يشرف على سلوك أفراد، ويستطيع توقيع العقاب، على كل من تسول له نفسه الخروج عليه، وأهون صور هذا العقاب، هو التهكم الشديد أو السخرية المرة.

فقد أصبح «الاعتزاز باللغة العربية هزيلا يقابله مد زاحر قاهر من الإعجاب باللغات الأوروبية، والتأثر بها والاقتباس منها، بمناسبة وغير مناسبة».

#### رابعاً: دراسات عن الوضعية الازدواجية واللغوية:

لقد اعتُبر الوضع الازدواجي في أية لغة أنه يشكل عوائق مختلفة للناطقين بتلك اللغة؛ كما اعتبره الكثير من الباحثين عائقاً للتعليم وللتطور التربوي والاقتصادي والتماسك القومي.

يقول الباحث سوتيرو بولص (Sotiropoulos 1977) الذي تناول بالتفصيل الوضع القائم باليونان، حيث كان لأمد قصير التنازع بين الفصحى والعامية كلغة للبلاد (لقد حسم الوضع في اليونان عام 1976 بعد أن اتخذت الحكومة اليونانية برئاسة كرامنلس قراراً رسمياً يقضي بإلغاء اليونانية الفصحى المسماه كذاريفوسا (Katharevousa) واعتماد العامية اليونانية المسماه ديموتيكي (Demotiki) لغة رسمية للبلاد) في وصف انعكاسات الازدواجية اللغوية، وإن تكن الازدواجية، وبشكل موضوعي، أداة بارعة للضرورة، فإنها من وجهة النظر الاقتصادية والتماسك القومي وفعالية التعليم والاتصالات وأجهزة الإعلام لعائق. بالإضافة إلى ذلك، إذا اعتبرنا أن وظيفة اللغة ليست للاتصال وحسب؛ وحقيقة أن اللغة تخدم احتياجات الشخص والمجتمع العاطفية والمعرفية والنفسية، فإن وجود الازدواجية في الجماعة اللغوية لذو آثار محدّدة، بل معقدة لقوتها التعبيرية. الازدواجية رمز وتذكرة للصراع الاجتماعي ونقص التماسك الاجتماعي».

#### خامساً: الدراسات عن اللغة العربية:

لقد تحدث عدد كبير من الباحثين عن المشكلات التي تورثها الازدواجية نفسياً واجتماعياً واقتصادياً وتربوياً. وبالنسبة للغة العربية، بالغ بعضهم وخاصة اليهود منهم بانعكاسات الازدواجية على النفسية العربية والعقل العربي، إذ ربطها الكاتب اليهودي رفائيل باتاي (Patai) في كتابه عن العقل العربي بالهامشية وانفصام الشخصية.

ويخلص لفين (Laffin 1977) في فصل عن اللغة العربية والأدب الغربي في كتابه عن العقل العربي إلى عدد من الاستنتاجات الجائرة التي تحفى حقداً كميناً، إذ يربط بين اللغة العربية والكذب والاهتمام بالكم وتبرير العنف... الخ. ومن هذا المدخل شن الكاتب هجوماً نفث به أحقاداً قلماً شهدت اتجاه لغاتٍ أخرى ومتكلميهها.

ولابد لنا في هذا السياق أن نسوق ما أورده كاتب غربي في مقالة معروفة واسعة الاقتطاف في اللغة الانجليزية عن اللغة العربية، وهي مقالة) بعنوان «تأثير اللغة العربية على نفسية العرب» يدعي شويي أن للغة العربية انعكاساتها على النفسية العربية من حيث ابتداء عالين، عالم المثال وعالم الحقيقة يمثل الأول منهما اللغة العربية الفصحى والثاني تمثله العامية.

ويمضي شويي في تعميماته ليقول أن الأفكار التي تعبر عنها العربية غامضة وكلما زادت بعداً عن المحسوس كلما ازدادت صعوبة فهمها بدقة. ويضيف إلى أن العربية تبالغ

بالتأكيد على الشكل على حساب المعنى، وهذا يبعث على التكرار وعلى الحرص لأن تُحشر الأفكار لتناسب الكلمات لا لأن تناسب الكلمات الأفكار.

ومما يثير الاستغراب أن تقتبس هذه التعميمات الجائرة في كثير من الكتابات العربية دون تمحيص، يقول أبو سعدي في أطروحته للدكتوراه ودون مقدمات (A bou - Seida 1971) أن اللغة العربية الفصحى بصيغها الجامدة قد تركت أثرين نفسيين على الناطقين بها:

- التركيز على الشكل وذلك على حساب المعنى يؤدي إلى الغموض في التعبير مما يقود إلى الغموض في المواقف الجبائية.

- الغموض في الفكر ويتمثل بجمود القواعد النحوية واستخدام ألفاظ قديمة للتعبير عن معانٍ جديدة في الحضارة الحديثة.

ثم يعود الكاتب لاقتباس شوبي في الصفحة التالية. وفوق ذلك كله نحى الغربيون في اللائمة على العربية ووضعها الازدواجي معللين بهذا الوضع أسباب تأخر هذه الأمة وفقدانها لقوى الإبداع وسيأتي ذكر مهندس الري الانجليزي في مصر وحملته على العربية لاحقاً.

ومن أوائل الكتاب العرب الذين أبرزوا المشكلات التي تورثها الازدواجية وعلى نسق الكتاب الغربيين كان أنيس الحوري فريجة أستاذ اللغات السامية في الجامعة الأمريكية في بيروت في كتابه في اللغة العربية وبعض مشكلاتها والذي صدر عام 1966.

رغم أن فريجة لا يشير في كتابه إلى أحد من كتب في الازدواجية من الغربيين إلا أنه أول من استخدم تعتبر الازدواجية من الكتاب العرب معتبرها المشكلة الأولى من خمس مشكلات رئيسية تعاني منها اللغة العربية، يسوقها مهيناً وداعياً لأحداث تعبير لغوي جذري في العربية. والمشكلات الأربع الأخرى على قدر كبير من الأهمية.

أولها كما يراها فريجة تقييد الفصحى بأحكام وضوابط مرهقة مبنية على قواعد الشعر ومنطق أرسطو، وثانيها كتابة العربية بالحروف الصامتة وثالثها عجز العربية عن اللحاق بالعلوم والفنون والفلسفة ورابعها مشكلة تدريس اللغة العربية.

### سادساً: المشاكل المفتعلة للغة العربية وحلولها:

أما عن أولى مشكلات اللغة العربية فهي الازدواجية والتي كما يقول فريجة تترك في كل شعب آثار سلبية في الفكر والتربية والشخصية والأخلاق والفنون الجميلة.

وفي كل من هذه الحقول أعاد فريجة أطروحات باتاي وشوبي وأضاف لها مبالغا في «التأثيرات» المدمرة» للازدواجية على الإنسان العربي. وقبل عرض هذه الآثار، لا بد لي هنا من تقديم تعريف فريجة لمشكلة اللغة العربية الأساسية الأولى وذلك لسببين رئيسيين، أولهما أن ما كتبه فريجة في هذا السياق واسع الاقتباس وثانيهما أن تعريفه يبين وبشكل جلي ما يرمى إليه، فالعامية «سلسلة سيالة لا تعوق الفكر ولا تتطلب جهدا» أما الفصحى فهي «شخصية لغوية ثانية،... لغة غريبة عن الحياة،... معربة، معقدة... الخ.» لننظر معا إلى ما يقول فريجة في هذا الصدد:

أولا: وجود لغتين مختلفتين اختلافاً كلياً: عامية وفصحى. أي أننا من الشعوب المزدوجي اللغة. فإننا نفكر وتكلم ونتم صلاواتنا ونناغي أطفالنا ونهمس في أذان من نحبههم ونفاهم مع من نرغب في التفاهم معهم وننشاتم مع من يروقنا أن نشاتم معهم بلغة محكية سلسلة سيالة لا تعوق الفكر ولا تتطلب منا جهدا.

يتلخص أثر الازدواجية على الفكر بأن انتقال العربي من لغة سيالة سلسلة مرنة غير معربة، من لغة لا تحتاج إلى عناء أو بذل جهود إلى لغة غريبة عن حياته اليومية صعبة معقدة معربة تخضع لقوالب معينة، أمر يعوق الفكر؛ أما آثارها في التربية فأنها تتطلب زمنا أطول للانتقال من العامية إلى الفصحى وهو انتقال من لغة إلى لغة أخرى مغايرة لها، وتولد الإعراض عن القراءة وكساد الأدب وطغيان القالب على المعنى وصعوبة كتب التدريس.

أما آثار الازدواجية في تكوين الشخصية فتتخلص كما رآها فريجة في لا مبالاة العرب بمراقبة لغة الأولاد واتسامهم بالمقارنة مع من هم في سنهم من الأولاد الغربيين بالعجز الظاهر في حسن التعبير.

أما تأثيرها في الأخلاق فيرى فريجة أن القتل وكثرة الجرائم التي تسمى في الشرق دفاعا عن العرض والشرف ناجما عن آثار كلمات لها فعل السحر وأخيرا يبين اثر ازدواج اللغة في الفنون الجميلة ليستنتج أن العرب قد حرموا من مشاهدة والاستماع بالمرشح نتيجة الازدواجية.

وقد رأى طه حسين في الإصلاح اللغوي شرط أساسي للتعليم كله وذلك لأنه «حين تعلم في لغة من من اللغات، لن تبلغ من التعليم شيئا إذا لم تكن لغة هذا التعليم واضحة سهلة قريبة إلى العقول والقلوب»، رأس هذا الإصلاح كما رآه طه حسين يكون بقصر تعلم النحو على القدر الضروري.

وفي هذا السياق يقول إبراهيم السامرائي في كتابه تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، (1973)، ويُشكل السامرائي تياراً يعتبره المتشددون اللغويون مغايراً لتيار طه حسين الذي يُتهم بتأثره بالغرب، يقول السامرائي: «إن واقع العربية يشير إلى أنها مشكلة كبيرة ذلك أن هذه اللغة يراد لها أن تكون لغة العرب أينما كانوا، ثم أن تكون في مستويات ودرجات مختلفة ... إن من العوائق التي تحول بيننا وبين إدراك شيء من هذا الهدف هو أن هذه العربية ما زلنا نجهلها. يجهلها ابن الشارع كما يجهلها المتعلم المثقف وقد أكون مصيباً لو قلت يجهلها ذوو الاختصاصات المختلفة. وقد أكون غير مفرط لو قلت أن مدرسي اللغة العربية وأساتذتها في محنة منها. ذلك أن طائفة كبيرة منهم لا تملك القدرة الوافية الكافية على الإعراب بفصيحة سليمة. ... أن العربية الفصيحة في عصرنا الحديث مشكلة صعبة ذلك بأننا شاعرون أبداً أن في لغتنا حاجة إلى أن تُسَرَّ رسمياً وبناءً ونحواً لكي تصبح لغة يباشرها العربون فيتصرفون بها كلاماً وفكراً وكتابة.... إننا معاصر العرب نجهل لغتنا ونجد في مباشرتها صعباً كثيرة فلا يستطيع كثير من جمهرة المختصين أن يملك من هذه العربية القدر الذي يعينه على إيصال العلم والمعرفة إلى غيره بيسر».

### سابعاً: الوضعية الازدواجية للغة العربية:

وفي دراسة حديثة نشرت عام 1996 في مجلة غربية، يعيد صلاح عياري (Ayari 1996) الكره ليربط بين الوضع الازدواجي للغة العربية وانتشار الأمية واصفاً لما لهذا الوضع الازدواجي من أثر سلبي على تعلم الطفل لمهارات القراءة والكتابة وعلى تحصيله العلمي بشكل عام.

ولابد لي من التنويه هنا أن الربط بين الازدواجية وانتشار الأمية قد أورده فيرجسون في مقالته عن الازدواجية المشار إليها آنفاً.

إذ أكد أن الازدواجية تبدو مقبولة في مجتمعاتها ولا تعتبر مشكلة حتى يبرر أحد ثلاثة اتجاهات:

أولها: انتشار محو الأمية (لأسباب اقتصادية أو فكرية أو غيرها) .. ذلك لأنه أشار في المقالة نفسها أن أحد أسباب وجود الازدواجية هو حصر القراءة والكتابة بالنخبة.

وثانيها: الاتجاه نحو مزيد من الاتصالات بين الأقاليم والطبقات؛

وثالثها: الاتجاه نحو تشكيل نمط لغوي موحد يمثل الاستقلال والسيادة.

هل يصدق هذا على العربية؟ إن كان الحال كذل فكيف الطريق لتجنب تلك العوائق؟ هل للعربية وضع خاص يختلف عن غيرها من اللغات؟ سأحاول الإجابة عن هذه الأسئلة بعد أن أحدد المشكلة في سياقها العربي. لذلك سأبدأ ببحث أربعة أنماط للغة العربية، يعرف منها العرب الفصحى والعامية؛ أما النمطان الآخران فقد أبرزهما كتاب غربيون أو عرب تعلموا بالغرب وبأمريكا خاصة. ولو وضعنا الأنماط الأربعة على خط مستقيم لوجدنا الفصحى على طرفه الأيمن، والعامية على طرفه الأيسر، وقارب كل من النمطين الجديدين أحد الطرفين.

### ثامناً: الأنماط الأربعة للعربية العربية:

الأنماط الأربعة هي العربية الفصحى، العربية الحديثة، عربية المثقفين والعامية.

العربية الفصحى: وهي ما يسميه الغربيون العربية الكلاسيكية Classical Arabic) أو العربية الفصحى (Fusha Arabic) أو أحياناً العربية الأدبية (Literary Arabic) وما سماه فيرجسون بالنمط العالي أو «المرتفع» ورمز له بالحرف (H)

الفصحى بالدرجة الأولى هي لغة القرآن ولغة الإسلام، وهي الوسط الذي انتشر به الإسلام ديناً وثقافة. والعلاقة بين العربية الفصحى والإسلام علاقة عضوية حميمة. قال تعالى: {إنا أنزلناه قرآناً عربياً} وقال {بلسان عربي مبين}. ولا محالة أن يكون هذا السبب الأول في احتفاظ العرب على اختلاف مآربهم وأهوائهم عبر التاريخ، ورغم كل ما بذله الغازون والمستعمرون عبر التاريخ العربي الإسلامي من جهد في سبيل تحويرها أو تحريفها أو إبدالها بلغة أخرى. ولا بد من نظرة عميقة في هذه العلاقة بين العربية والإسلام، التي تنعكس في آراء المسلمين في بلاد منها الصين وبورما وأفغانستان ودول الاتحاد السوفياتي آنفاً وغرب إفريقيا، وفي آراء ومعتقدات العرب منهم خاصة، حتى ندرك قيمة هذه اللغة ومدى تمسك المسلمين بها.

وقد حاول عدد من المفكرين المسلمين أن يشرحوا أو يبينوا هذه العلاقة وللفكر الغربي بالذات. فعلى سبيل المثال يقول الشيخ عناية الله، الأستاذ في جامعة البنجاب، في مقالة نشرتها مجلة Muslim World في توضيح هذه العلاقة:

«العربية ذات أهمية عظيمة لكونها اللغة الدينية للمسلمين الذين يكونون خمس الجنس البشري ... ويتم التأكيد في القرآن الكريم مراراً وتكراراً على حقيقة أن كلمة الله قد أوحى بها باللسان العربي. ومن طرف العالم الإسلامي إلى الطرف الآخر، ومهما

كانت لغة المسلم، سواء كانت بربرية أم حوساوية أم بشتو أم فارسية أم تركية أم جاوية أم ملاوية، فإن الصلوات تقام خمس مرات بالعربية يومياً. أما الكلمات الأساسية في العقيدة الإسلامية - لا إله إلا الله محمد رسول الله - فإنها تهمس في أذن الوليد، ومن بين أولى الجمل التي يعلم الطفل أن ينطق بها، وينبغي أن تكون هي الكلمات الأخيرة على شفاه الميت».

من هنا نبع الاعتقاد بقدسية اللغة العربية بشكلها الفصيح، وقد أثر هذا الاعتقاد تأثيراً واضحاً باتجاهات العرب نحو لغتهم. يقول أنور شحنة (Chejne 1969) في كتابه المعروف في الغرب عن اللغة العربية وأهميتها في التاريخ واصفاً أثر هذا الاعتقاد: «إن الإيمان بقدسية القرآن فيما يتعلق بمعانيه وكلماته، وحتى أدق تفصيلاته، أصبحت تشمل وتحتوي اللغة العربية بكليتها. أن مسألة كون العربية أعطية الله - وبناء عليه فهي فوق اللغات جميعاً بجملها وثروتها ونبلها - قد استحوذت بعمق اهتمام وتفكير فقهاء اللغة ومشرعي الإسلام والفلاسفة والفقهاء وغيرهم».

وقد أدى الإيمان بقدسية العربية الفصحى إلى تجذير قناعات المسلمين بحتمية بقائها على مدى العصور والدهور. وأصبحت هذه القناعات جزءاً من العقيدة. يقول المحتسب في مقالة نشرتها مجلة المعلم العربي عام 1958 (طالع الجندي) في علاقة القرآن الكريم باللغة العربية:

أن القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على قيد الحياة وسيحفظها على مر الدهور وستموت اللغات الحية المنتشرة اليوم في العالم، كما ماتت قبلها لغات حية كثيرة في سالف العصور، إلا العربية فسوف تبقى بمنجاة من هذا الموت وستبقى حية في كل زمان مخالفة النواميس الطبيعية التي تسري على سائر لغات البشر. ولا غرو فإنها متصلة بالمعجزة القرآنية الأبدية، فالكتاب العربي المقدس هو الحصن الحصين والملجأ الثابت الأمين الذي تحتمي به اللغة العربية، ويصون وحدتها ويجعلها تقاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسة المعادية ودسائسها الهدامة.

أنه الكتاب الأول للعربية والعروبة، كما أن الكتاب الأول للرسالة الإنسانية الخالدة التي حملت أمانتها العربية والعروبة.

أما المستشرق الألماني يوهان فك فيقول في بداية كتابه العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب واصفاً هذه العلاقة وذاكراً ما يتصل بالكثير من موضوع هذا البحث.

العامية أو المحكية أو الدارجة أو اللهجة: هو النمط الذي يسميه الباحثون الغربيون العربية الدارجة (Colloquial Arabic) أو العربية المحكية (Spoken Arabic) أو عربية اللهجة (Dialect) وأسماها فيرجسون النمط المنخفض ورمز له بالحرف (L).

كذلك كانت هذه اللغة الأدبية هي أداة التفاهم في اللقاءات والأسواق الأدبية. يخلص الدكتور محمود حجازي في كتابه اللغة العربية عبر القرون إلى نتيجة أنه انطلاقاً من وجود هذه اللغة الأدبية فإنه «من الطبيعي أن يكون القرآن الكريم بلسان عربي مبين» وأن لا يكون محلياً في التعبير بلهجة ما، بينما الإسلام دعوة إلى تجاوز المحلية القبلية إلى أفق عالمي أرحب. وقد اعتبر عدد من الباحثين أن هذه اللغة الأدبية هي لهجة قريش.

وقد تبني من بين المحدثين الدكتور صبحي الصالح في كتابه دراسات في فقه اللغة وجهة النظر هذه ودافع عنها. بالرغم من ذلك فإن اللغويين العرب لم يُبدوا اهتماماً باللهجات ودراساتها؛ ومرد ذلك غلبة التشابه بين هذه اللهجات من جهة، وبينها وبين اللغة الأدبية من جهة أخرى، وسهولة التفاهم، ووجود ما يسمى بالنظرية اللغوية الحديثة، «الفهمية المتبادلة» بين هذه اللهجات واللغة الأدبية.

بالرغم من عدم الاهتمام الفائق ذلك، فإن هناك إشارات للمزايا البارزة لكل من هذه اللهجات واختلاف بعضها عن بعض، أورد الكثير منها ابن جني في الخصائص. ومن الطبيعي أن يكون التركيز على المزايا البارزة، وخاصة في حقل الأصوات، وهو حقل يثير الاهتمام والملاحظة. وجملته المشهورة تلخص بعض الخصائص البارزة لتلك اللهجات حين قارنها بلهجة قريش «فقد ارتفعت قريش في الفصاحة عن عننة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتله بهراء» كما ورد المزيد منها في المزهر كالفخفة في لغة هذيل، والعجعة في لغة قضاعة، وشنشنة اليمن، ولخاخانية أعراب عمان، وطمطمانية حمير ... الخ. و جل هذه الظواهر سمات صوتية مميزة لتلك اللهجات.

ينظر العربي بشكل عام للهجته بالنسبة للفصحى على أنها ليست ناقصة وحسب، بل إنها تشويه للغة المقدسة، لغة الفصاحة والأدب. وقد وُصفت العاميات بأفدح الألفاظ من قبل الأدباء والكتّاب العرب، فهي «مصاحبة للجهل والسوقية»، كما قال عبد الملك، «لغة السكارى والخدم ... فوضوية ولا قواعد لها»، كما يقول مبارك، «علامة للجهل والامبريالية»، كما يقول طه حسين، وبعض هذه الأوصاف مبالغة في الاتهام وتنقصه العلمية؛ فللعامية قواعد، وتستطيع كتابتها إن كان ذلك ذا جدوى؛ وهي أميل إلى التبسيط في

النحو، إذ تُلغى الحركات وتقلّ الأوزان والتمييزات؛ ولكن هناك أسساً أمتن من ذلك للحكم على العامية وتفضيل الفصحى. وبالرغم من هذه الاتجاهات السلبية نحو العامية في العالم العربي، فإن العامية تقوم بوظائف جديدة في عالمنا، ربما تستمر ولردهة من الزمن، وذلك لارتفاع نسبة الأمية.

يميز السعيد بدوي في كتابه المعروف مستويات اللغة العربية المعاصرة في مصر بين خمسة مستويات رئيسة للعربية، وإني أراي أناسي الأسماء المبتدعة في الغرب لوصف الأنماط الجديدة واستخدم ما عناه السعيد بدوي (1985) في مستوياته وهذه المستويات الخمسة هي:

فصحى التراث: وهي الفصحى القرآنية وتكاد تكون وقفاً على رجال الدين من علماء الأزهر وتنحصر في البرامج الدينية المعدة مسبقاً. مستوى تاريخي موروث.

فصحى العصر ومجالها أوسع من فصحى التراث إذ تشمل كل جوانب حياتنا المعاصرة وتستخدم في تقديم برامج الأخبار والتعليق السياسي والأحاديث العلمية ... الخ.

عامية المثقفين وهي ما يستخدمه المثقفون في الأمور التجريدية وفي المناقشات العلمية والسياسة والفنية وقد أصبحت عامية المثقفين «بمفرداتها وتعبيراتها ومرونتها مستودع الحضارة المصرية ولسان العلم المعاصر».

عامية المتنورين وهي ما يستخدمه غير الأميين عموماً في أمور الحياة العملية اليومية من الرواية والأخبار والبيع والشراء وما يجري من الحديث مع الأصدقاء عن الطعام والملابس ... الخ.

عامية الأميين وهو ما يستخدم في البرامج التمثيلية والمسرحيات الفكاهية. «لغة أولاد البلد» من الجنسين.

## المراجع العربية:

- إميل بديع يعقوب، فقه اللغة العربية وخصائصها، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1985.
- إبراهيم أنيس، في اللهجات العربية، مطبعة أبناء وهبة حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 2003.
- إبراهيم السامرائي، تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، 1973.
- ابن جني، الخصائص ج 2، (تحقيق محمد علي النجار) القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988.
- أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن. بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1958.
- أنيس فريخه. في اللغة العربية وبعض مشكلاتها. بيروت: دار النهار، 1966.
- رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي، دار الخانجي، القاهرة، 1997.
- علي الخولي، الحياة مع لغتين، ط 1، جامعة الملك سعود، الرياض، 1988.
- علي ناصيف، من قضايا اللغة والنحو، عالم الكتب، القاهرة، 1957.
- طه حسين. مستقبل الثقافة في مصر، القاهرة: دار المعارف، 2001.
- فخر الدين قباوة، المهارات اللغوية و عروبة اللسان، دار الفكر المعاصر، لبنان، 1999.
- المسدي عبد السلام، اللسانيات من خلال النصوص، النشرة الأولى، الدار التونسية للنشر، عام 1984.
- محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2001.
- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم الجزء الثالث، المكتبة العصرية، القاهرة، 2006.
- محمد مصايف، في الثورة و التعريب، ط 2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981.
- محمود عبد المولى، مقالات و أبحاث، تونس للنشر، تونس، 1982.
- محمود فهمي حجازي، اللغة العربية عبر القرون، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1978.
- مازن مبارك، نحو وعي لغوي. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1985.

- هادي نهر، الأساس في فقه اللغة العربية و أرومتها، دار الفكر للنشر والتوزيع، لبنان، 2002.
- يوهان فك، العربية: دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة رمضان عبد التواب، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1980.
- Ferguson, Charles A. «Diglossia,» Word 15. 325-40, 1959.
- Jean Dubois et autres : Dictionnaire de linguistique, Larousse, France, 1991.
- Marcais, William, «La Diglossie Arabe,» L'Enseignement Public, 1930.
- Sélim Abou; le Bilinguisme arabe français au Liban: Essai d'anthropologie culturelle, P.U.F. Paris; 1962.
- Vincent Monteil ; L'arabe modern ; Librairie C.Kinckseick; Paris; 1960.
- Abdel-Malek, Zaki «The Influence of Diglossia on the Novels of Yusif Al-Sibai,» Journal of Arabic Literature, 1972.
- Abou-Seida, Abdelrahman. Diglossia in Egyptian Arabic: Prolegomena to A Pan-Arabic Sociolinguistic Study. Ph.D. Dissertation. The University of Texas at Austin, 1971.
- Ayari, Salah. «Diglossia and Illiteracy in the Arab World» Language, Culture & Curriculum. 9, 3, 1976.
- Chejne, Anwar. The Arabic Language: Its Role in History. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1969.
- Fishman, Joshua, The Sociology of Language: An Interdisciplinary Social Approach to Language in Society, Rowly, MA: Newbury House, 1972.
- J Gumperz, John, Types of Linguistics Communities, Anthropological Linguistics, 4, 1, 1962.
- Hymes, Dell. «Introduction to Social Structures and Speech Community,» in D. Hymes, ed., Language in Culture and Society. New York: Harper and Row Publishers, 1964.
- Hudson, Alan. «Diglossia: A Bibliographic Review,» Language in Society 21, 4, 1992.
- Inayatullah, S. "Arabic as the Religious Language of the Moslem", Muslim World. 29, 3, 1949.

- Kaye, Alan S. «Remarks on Diglossia in Arabic: Well Defined vs. ill Defined,» Linguistics 81, 1972.
- Laffin, John. The Arab Mind: A Need for Understanding. London: Cassel, 1977.
- Language Shift,» International Journal of the Sociology of Language, 1993.
- Patai, Raphael. The Arab Mind. New York: Charles Cribners and Sons, 1973.
- Sotiropoulous, Dimitri. «Diglossia and the National Language Question in Modern Greece,» Linguistics 197, 1977.
- Schiffman, Harold, «The Balance of Power in Multiglossic Languages: Implications for Shouby, Eli. «The Influence of the Arabic Language on Psychology of the Arabs», Middle East Journal, Summer, 1951.

•